**التّــواصل في اللامية: ( بــين الــقبول والرّفض )**

ففي أبياته هذه نرى " بعض عناصر التّشويش التّي تتعارض بين أفق المتلقي, وأفق النّص, ممّا توحيه بعض الألفاظ كالفناء والمحو, وتبادل الدّور مع الله, وغيرها ما يصـــدم حين يفهم بأجهزة لغوية بحتة تعادل بين ظاهر الكلمات , ومفاهيم الدّعوة إلى الكفـــر..."[1], كما يصعب على المتلقي أن يستصيغ المفاهيم الصّوفية دون تحليل الشفرة من منظورهـــا الباطني, وتأويل الجهاز المفاهيمي الصّوفي ,وعلى هذا الأساس قـــد يكـــون التّفاعـــل أو التواصل سلبيا, بتوظيف الشّاعر أحمد بن عليوة لمصطلح الحلول, ولكّن ليس بـــالمنظور الإلحادي أو التّكفيري.

لكّن طبيعة التّواصل في القرن التاسع عشر, تختلف تماما عن التواصل في المراحل السّابقة,وعليه فـ" إنّنا في كلّ تجربة تواصلية مخالفة للوضع الاعتباري الذّي يخضع لـــه الباث والمتلقي في التّواصل اليومي مطالبون بالتّأويل..."[2],ولذلك على البـــاث أن يحـــدث موازاة بين الممارسة الخطابية, وبين شروط التّقبل الخاصّة, من المصطلحات الصّـــوفية التّي يتخلخل بها النّظام اللّغوي العادي هو التّجلي الذّي هو " رفع حجبة البشـــرية, لا أن تتلوّن ذات الحقّ عزّ وجلّ عن ذلك علا..."[3].

وعليه فإنّ حالة الصّوفي تحول دون سفره من مكانه, وإنّما سفره عـــبر مقامـــات تحول بينه وبين عدم تغيّر حاله, فالصّوفي يفنى لحظات, ويغيب عن حاله لاعتبر الصّوفي ذلك محالا, وما يحضرنا في اللاّمية أيضا قوله:

حَبِيبٌ قَدْ تَجَلَّى عَلَيْنَا بِنُورِهِ فَنِلْنَا مِنْ ذَاكَ النُّورِ حَظًّا وَإِنْ جَلاَ [4]

وَقَدْ بَدَا نُورُ الشَّمْسِ فِي قَمَرِ الدُّجَى فَكُنْتُ مِنْهَا فَرْعًا وَكَانَتْ مِنِّي أَصْلاَ

---

[1] آمنة بلعلى " الحركية التواصلية في الخطاب الصّوفي ", ص 28

[2] إدريس بلمليح "القراءة التفاعلية ", ص 102

[3] تاج الإسلام الكلاباذي " التعرف لمذهب أهل التصوف", ص 122

[4] أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين ", ص 7

إنّ التّجلي في هذين البيتين هو حقيقة الأسماء الإلاهية التّي تتجلّى في الألم, فالحظ أنّه بنوره انطبع على كلّ الموجودات, وإن خلا, مقصده في البيت الثاني خصوصا أنّه بدا الكشف في فنائهم , وغيبوبتهم بالأحرى, وقد يقصد أنّ الذّات الإلاهية قد انجلت, فكان الصّوفي فرع من الموجودات, والذّات الإلاهية أصل الموجودات,و قد يحيلنا بذلك إلى وحدة الوجود.ولذا فإنّ منهج الصّوفية هو" الذّوق الذّي يوجب عليهم أن يتذوّقوا لغته, وأن يفهموا اللّغة التّي ينطق بها منهج الوجدان, ويحسنونها ويتدّرعون بها, حين يواجههم خصومهم..."[1],ومن ذلك الخمرة التّي هي شراب كلّها ذوق ولذّة روحية,وفي ذلك قوله:

وَقَدْ خَمَرَ الغَرَامُ مِنَّا عُقُولَنَا كَأَنَّنَا فِي خَبْلٍ وَلَسْتُ أَرَى خَبْلاَ [2]

تَرَانَا بَيْنَ الأَنَامِ لَسْنَا كَمَا تَرَى تَا للهِ لَفَوْقَ الفَوْقِ أَرْوَاحُنَا تُجْلَى

وعليه فإنّ مظهر القبول والرّفض تلغي معادلة التّقاطع المعرفي بين الخاصّة والعامّة, فهو من المفاهيم التّي أثارت الجدل, وأحدثت فجوة في النّصوص الصّوفية وإدراجها ضمن الإطار التّخييلي ,أو الحكائي في باب المعجزات والكرامة ,يؤثّر بشكل أو بآخر في نفسية المتلقي بين قبول ورفض في عملية تأويلية هذه الحالة الصّوفية.

وعليه فعلى " أيّة حال ومن أجل أن يشتغل النّص , ومن أجل أن يحرز مؤلّفه جمهورا مؤيّدا يجب أن يكون مقبولا بما فيه الكفاية بحيث يكون القارئ منفتحا في الأقل على تدفّق النّص , وحالما يبدأ تدفّق النّص فإنّ زخمه الدّلالي سيحمل القارئ عبر شبكة فرعية من التّرابطات الجديدة أو المطروقة.."[3],ومن جهة أخرى يجب عليّ كمتلقية "أن أؤمن بنفسي ونتيجة لذلك أن حركة سلبية ليست أقل تأثيرا في التّنظيم الدّلالي من القبول نفسه , يكون انطباع بأنّني أحيا على نحو أمثل , من جهة أخرى يمثّل الرّفض أو القبول

[1] مجدي محمد "ابراهيم " مشكلة الاتصال بين بن رشد والصوفية ", ص 88

[2] أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين ", ص 7

[3] سوزان روبين سليمان " القارئ في النّص, ص 223

المضاد ..."[1] , وفي خضم هذا و" قبيل خمسين عاما تقريبا وصف ياكبسون بما فيه الكفاية تأثير كلا هذين الشّكلين الأوليين من التّأويل :أي القبول و الرّفض.. "[2],مـــن خلال دراسته قصائد نرفال وتأثيرها في عدد من المواطنين التشيكسلوفاكيين , ورأى أنّه " وحتّى وإذا قرأوا هذه القصائد ورفضوها ,فلن تبقى لغتهم وطقوسهم اليومية بمنأى عنه التّغيير "[3]

**مــشروعية الــوجد الصوفي والتّواصل :**

كما يتحدّث أحمد بن عليوة عن الحلول ( دون المغالاة), لكي لا يؤثّر على المســـتمع أو المتلقي الدّي يكون تفاعله غير إيجابي, وفي الحلول يقول :

تَحْكِي بِكُمْ أَجْسَامٌ حَلَّتْ فِي رَمْسِهَا مُمَزَقَةً كَانَتْ رُفَاتًا وَنُخَّالاً [4]

كَأَنَّهُمْ رُوحُ اللهِ حَلَّتْ فِي آدَمَا مِثْلَ مَا لِمَرْيَمَ مِنْ نَفْخِ جِبْرَائِيلاً

إنّ الانفصال الجسدي هو تمزيق للشّعور, والوعي الإنسي, فعنـــد حلولهـــا, تتحـــد الرّوح مع بارئها, دون الحلول الفعلي الدّي يراها أنّهما واحد, ويحيلنا أحمد بن عليوة فـــي هذين البيتين إلى قول الحلاّج الدّي كفّره البعض, فالصّفات الإلاهيـــة تحـــلّ فـــي الـــذّات الصّوفية, وليس حلول الذّات في الذّات الإلاهية, وهذا إلحاد, و" إنّ الحلول عند الصّـــوفية هو امتداد لفكرة الفناء,وأنّ الحلاّج كان مناديا به بالمعنى الدّي اعتقده النّصارى من قبل و كان اتهام الحلاّج بالحلول قد أضحى من المسلّمات التّي يأخذ بها معظم مؤرّخي التّصوف ودارسيه... " [5]

وعلى هذا الأساس فإنّ هذا النّص يكتسي طابعا رمزيا ينهض على البـــاطن, ولا يحتاج إلى متلقي سلبي الدّي " لا يمكن أن يمارس أيّ نشاط تأويلي, لأنّه لا يملك الأهلية

[1] دانيال تشاندلر" أسس السيميائية ", ص 223
[2] المرجع نفسه, ص 223
[3] المرجع نفسه, ص 224

[4] أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين", ص 7
[5] يوسف زيدان " الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي ", ص 162

لذلك..."[1], والحالة الصّوفية تلك من قبيل الشّطح, والوجد, تعبّر عن وضعه حين المشاهدة, وهو ما يشمل أو يمثّل التّأويل الإشاري يقوم فيها على حسب_ما تقدّم به الغزالي_ " على دلالات غامضة, وصيغ رمزية غير مفهومة..., لها ظواهر رائقة, و فيها عبارات هائلة, وليس وراءها طائل..."[2],وعلى المتلقي ألاّ يكتفي بالوقوف على ظاهر هذه الاصطلاحات والشّطحات, والذّي يمنع من فهمها, دون أن يكون تأويلا منحرفا عن قصد الصّوفي , ويتضح الشّطح في شعر أحمد بن عليوة في قوله:

أَلاَ فَارْقُصُوا وِجْدًا وَتَيْهًا وَطَرَبًا وَجَرُّوا ذُيُولَ العِزِّ كُنْتُمْ لَهَا أَهْلاَ [3]

فالوجد دلالة على التّرقي, وبلوغ مقامات المشاهدة, كما هو " لهيب ينشأ فيالأسرار, وينتج عن الشّوق, فتضطرب الجوارح طربا أو حزنا عن ذلك الوارد..."[4], يعبّر عمّا يختلج الصّوفي, وما يسلب عقله, إذ أنّه " يفرّق الأنا المتمركز على نفسه غاية التّمركز, وإذا كان الوجد يقوم بهذه القطيعة, فهو يوحّد بذلك الأنا مع الآخر..."[5], وليس غاية الصّوفي في ذلك فقدان الشّعور, وإنّما يسعى إلى الاحتراق بلظى الحبّ ,ليتحقّق الوجود,والحضور المطلق لذاته تعالى.

وعليه من منطلق ما ذكرناه سابقا عن الشّطح والوجد, والحلول , والاتحاد, ورغم مشروعيتها الصّوفية, إلاّ أنّها تشكّل مسارا مغايرا لطبيعة التّفاعل بين الصوفي (أحمد بن عليوة), ومتلقّي قصائده حتّى ما بين الذّات الصّوفية, والذّات الإلاهية, بتلاشي كلّ الوسائط والحواجز, لذلك يغلب على ردّة فعل المتلقي الرّفض للرّسالة الصّوفية القائمة, ممّا جعل الصّوفية ينحون منحى الكتمان والرّمز مستمد من علم الباطن, وفي ذلك يقول أحمد بن عليوة :

---

[1] فريد الزاهي " النص الجسد التأويل ", افريقيا الشرق لبنان , 2003, ص 93

[2] أحمد عبد المهيمن "إشكالية التّأويل بين كلّ من الغزالي وبن رشد",ت:عاطف العراقي, دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر, ط 1, 2001,ص 182

[3] أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين", ص 8

[4] تاج الإسلام الكلاباذي " التعرف لمذهب أهل التصوف", ص 113

[5] جان شو قليي " التصوف والمتصوفة",ص 122

كَلاَمُكُمْ مَا أَحْلاهُ يُصْغَى لِصِيتِهِ كَأَنَّهُ تَسْبِيحٌ مِنَ المَــلأِ الأَعْلَى [1]

لِأَنَّهُ سِحْرُ اللهِ لِــلْقَلْبِ جَــاذِبٌ وَاللهُ يُحِقُّ الحَقَّ وَالبَاطِلُ آفِلاَ

حَوَيْتُمْ عِزًّا نَعَمْ وَقَدْرًا وَ سَطْوَةً فَعِزُّكُمْ عِزًّا وَدَوْلَــتُــكُمْ دَوْلاَ

إنّ طبيعة التّواصل أساسا كانت نتيجة الطّابع الصّوفي نفسه إذ يمثّل هدف التّصوف " لم يكن بناء الإنسان العابد لله تعالى الملتزم بشريعته المنزّلة منه إلى عباده هدى, ونورا ونهجا ,وحياة, وإنّما هدفه الوصول إلى (مذاقات الاتصال بالوجود المطلق والفناء), فـــي الحقيقة المطلقة (الله), أو إدراك الحقائق إدراكا بالعيان والقلب, و(الكشف), وغير ذلك من المعاني التّي إن صحّت من الناحية العلمية , ولم تكن أوهاما ضائعة, فهي لا تصحّح هـــدفا لعمل تربوي واسع ينطلق من الإسلام وللإسلام..."[2].

ومن هنا نلمس حجم التعارض الذّي قد ينّم هذا الوضـــع بيـــن الفقـــه أو التـــوجه الإسلامي عموما, وما بين إثارة الجدل التّي يحدثها التّصوف على ما أحدثه أيضـــا مـــن مقامات وأحوال أضافه إلى نهجه العملي, كما لا يستطيع الصّـــوفي أن يقـــدّم حججـــا أو تبريرات على سيره و عروجه , وتحديد موقفه إلاّ بوصفه لحدثه الاتصالي في حالة شطح أو وجد, وهذا ما يغيّر المعادلة من أساسها, خاصّة فيما يرتبط بالأثر الإقناعي الذّي تفرزه القصيدة الصّوفية .

ولكّن أحمد بن عليوة تمكّن من التعامل مع اللّغة مـــن خلال تمكّنـــه كغيـــره مـــن الصّوفية من " إيجاد مخرج آمن عبر اتخاذ الرّمز المواري الذّي يخفّـــف مـــن صـــراحة الخطاب ,ويواري دلالته, ممّا يساعد الدّائقة اللّغوية على تقبّلـــه دون أن ينبـــو أو يعـــدل عمّايتقبّله جمهور النّاس..."[3], لم يلق به استنكارا أو استغرابا من مريده أو متلقيه, وممّن أنكروه قدّم لهم عدّة شروحات تخصّ الطّريقة الصوفية , وخاصّة طريقته العلاوية, مبيّنا

[1] أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين", ص 8

[2] إنعام أحمد قدوم " التشيع والتصوف ",ص 56

[3] أماني سليمان داوود" الأسلوبية والصّوفية ",ص 158

النّهج الصّحيح للتّصوف, ومدافعا عن المتصوفة من ذلك الحلاّج ,وعليه فإنّ الوجد طرب ,وعند تجلّي الحق يغيب ,و"عناصر الوجد على الإطلاق...هو المناجاة بسّر,وأنّ قوام ظاهرة الشّطح هو إذاعة هذا السّر والكشف عنه ... "[1],فيفيض المعنى ,ويباح السّر,وتطرب العقول,وعلى الرّغم من وعي الكاتب في صحوه, أو في عدم وعيه وغيبوبته و اصطلامه , إلاّ أنّ هذه تمثّل من مجمل الأساليب السّلوكية التّي تعبّر عن حالة الصّوفي , وبدورها تعبّر عن آليات التّفاعل بينه وبين متلقيه , رغم ما يشوبه من علامات مشحونة كالوجد والشّطح والرّقص .

ومن هذا المنطلق أسهم الطّابع المستغرب في توطيد العلاقة بين المتصوفة والعامّة ,ونظرا لهذا الوضع الاستقبالي من جهة, ولارتباط التّصوف بحركة التّدين, والزّهد من جهة أخرى أصبح الوجد والشطح من الأساليب المهّمة في تفعيل التّواصل بين المتصوفة والمتلقين, ووقفنا عند موضع تفاعلي يبدأ من التّصوف إلى المتلقي ليعود مرّة أخرى من المتلقي إلى المتصوف فكثرت ردود أفعال المتلقين, بعدما تصاعدت أفعال الوجد, والشّطح, وأخبار الواجدين..."[2].

نبرز من خلال التلقي أيضا ما يعرف عند الصوفية بباب الكرامات ,ومدى استيعاب المتلقي لها بشكل إيجابي قد يغيّر معادلة التلقي من أساسها نظرا إلى انتقاء الصوفي نوعية من المتلقين , ومن الانتقادات التّي وجهت إلى الصوفية هي أنّ " الصوفية لا يذكرون خرافاتهم وباطلهم إلاّ أمام العوام و الجهّال , لأنّ هؤلاء مستعدون لقبول الخرافة وتصديقها... فأهل التصوف يكتمون معتقداتهم على من لا يؤمن بخرافاتهم ويصفونه بأنّه محجوب, ويوصون مريديهم بكتم تلك الأسرار..."[3] .

**ملامح الرّمز والتفاعل في اللامية :**

[1] محمد علي أبو ريّان " الحركية الصوفية في الإسلام ", ص
[2] آمنة بلعلى " الحركية التواصلية في الخطاب الصوفي ", ص 169, 170
[3] أحمد حفو " نظرات في التصوف على ضوء الكتاب والسنة ", مطبعة دار قرطبة, الدار البيضاء,1995,ص 120,121

فالصّوفية هم أهل العلم المكنون, ويفلح من " شمّ شذاه, وجاز من اقتناه ترى ذائقة تلوح عليه أنوار الهيبة, وإجلال, إذا تكلّم أغنى, وإذا نظر أفنى, فحقّه أن يقول أنا,ولا عليه من عنا..."[1], فلغة الصّوفية ذات شحنة رو حية لا يستطيع أسير الجسد أن يبلغ مداها, فيعمل الصّوفي جاهدا على أن " يتكلّم في الحدود التّي تنفع السّامعين, وألاّ يتجاوز في كلامهم طاقته, ولا قدراتهم, ولا مقاماتهم في السّير, فإذا ما تجاوز الولي المرشد هذا القدر من الكلام ضعف نور كلامه..."[2].

وطبعا للغة الصّوفية,والرّمز نورانية إذ يعملان على "أداء الوظيفة الرّامزة وتوصيلها وفق شفرات دالّة تحتمل التّأويل,والاحتمال,ولذلك سلكت الصّوفية مسلك الرّمز لما يحمله من طاقات الرّموز,و الإبهام , والإيحاء بقصد استلهام عوالمه الغامضة,بوصفها مؤشرات على الباطن الخفيّ, والدّاخل المستتر الذّي تستوعبه إلاّ الطّاقات الكشفية..."[3] إذن فالمتلقي عليه أن ينظر ما وراء القصيدة الصّوفية, كي تتاح له مواكبة هذا البعد الرّوحي, ويشترك في إعادة إنتاجية هذا المعطى الصّوفي ومواجهته, مبدئيا بالفهم والإدراك, ثم التّواصل مع النّص وصاحبه, وفي هذا يقول أحمد بن عليوة :

فَهَلْ لَكَ يَا هَذَا نَصِيبٌ مِنْ ذَوْقِهِمْ فَإِنْ كُنْتَ مِثْلَهُمْ نَعَمْ فَلَكَ وَصْلاً [4]

وَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَدَيْكَ شَيْئًا مِمَّا لَهُمْ فَأَنْصِفْ مِنْ نَفْسِكَ وَهَذَا الوَصْفُ يُتْلَى

ويكون " التّواصل في الأدب,إذن هو عملية تبدأ في الشّروع وينظّمها _ليس شفرة معيّنة_, التّفاعل المقيّد والمثمر على نحو متبادل بين التّصريح والتلميح, وبين الإظهار والإخفاء, فما هو خفيّ يستحث القارئ على الفعل,ولكّن هذا الفعل محكوم أيضا بما هو

[1] إبراهيم عاصم الكيالي "رسائل الشيخ المستغانمي ",ص 129
[2] سعيد حوّى " مذكّرات في منازل الصّديقين والرّبّانيين ", ص 464
[3] عبد القادر فيدوح "الرّؤيا والتّأويل ",ص 69
[4] أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين", ص 8

ظاهر, فالتّصريح بدوره يتحوّل حينما يتكثّف التّلميح, حين يردم القارئ الفجـــوات يبدأ التّواصل..."[5],فيتحوّل المتلقي إلى شخص منجز لقصيدة تتولّد من فحوى انتهاء لاوعي الصّوفي, وإدراكه إيّاها لا يتحقق بإفراغ القصيدة من شحنتها التّخييلية, وإنّما مـــن خلال الفهم الصّوفي للنّص , لا اعتمادا على مرجعيات الواقع ,فهذا الأخير هو الظّاهر الذّي بأيّة حلقة من حلقات التّصوف,ومن هنا تتزايد الاحتمالات, وتتفجّر العلائق الدّلالية, وتتصـــدّع لغة أحمد بن عليوة الواصفة, بين ثنايا النّص أو القصيدة , وبين تخمينات القارئ

وما يجب التّنويه إليه أنّ " كلّ قارئ ينفعل انفعالا خاصّا مع أنّه يسلك سبل القراءة ذاتها التّي يفرضها النّص على جميع القرّاء..."[2],وهذا المفهوم القرائي ينّم عن ذاتيته, كما تنّم القصيدة الصّوفية عن تجربة ذاتية للصّوفي, وبكرامته التّي تتأتّى له ,ولعلّ الكرامة من أفعال الجنون المتناقضة للعادة قد يعجز المتلقي استيعابها,كما لا يستطيع الصّوفي تـــبرير شطحاته التّي تكون في سكره و اصطلامه, وبعد مشاهدته في فـــترة ولـــه , وتلهـــف ,و تيهان, وقد يصاب الصّوفي لحظة الذّهول بالقول وإفشاء الأسرار الإلاهية , وفـــي ذلـــك يقول:

وَوَهَلْ صُنْتَ سِرَّ اللهِ بَعْدَ ظُهُـــورِهِ وَكُنْتَ عَنْهُ أَمِينًا وَهَلْ لَبِسْتَ الجُلاَّ [3]

فَهَذا بَعْضُ الذِّي يَدُلُّ عَنْ قُرْبِكَ وَإِلاَّ تَمَّ أَسْرَارٌ لاَ تُفْشَى فِي المَـــلاَ

فَفَإِنْ صَحَّ هَذَا الوَصْفُ عِنْدَكَ فَذَاكَا وَإِلاَّ أَنْتَ البَعِيدُ مِنْ حَضْرَةِ المَوْلَى

تَتَنَّحَ عَنْ عِلْمِ القَوْمِ لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ لاَ تَقْرَبْ مَالَ اليَتِيمِ ذَاكَ نَفْسُ البَلاَ

كَكَبُرَ مَقْتُ الإِلاَهِ يَا خَيْبَةِ الـــذِّي جَعَلَ زُخْرُفَ القَوْلِ يَسْتَبْدِلُ الفِعْلاَ

---

[5] سوزان روبين سليمان, إنجي كروسمان " القارئ في النّص ",ص 134_135

[2] فاطمة بريكي " مدخل إلى الأدب التفاعلي ", ص 158

[3] أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين", ص 8_9

ولعلّ طريق القوم في نظر أحمد بن عليوة هو في تحقّق المقام لا على مجـــرّد الكلام, والمحاكاة والتّفنن, حيث يرى أنّه " لا يجيب المنتهي المبتدئ حالة سيره عن مثلما حجب عنه, لئلا يأخذ ذلك علما, ويستغني عن الذّوق, وينقطع عن الزّيادة كما هو مشـــاهد في زماننا,حتّى صارت طريق تؤخذ من الأوراق..."[1], وفي هذا الشّأن يقول:

وَهَلْ يَـــنْفَعُ التَّـــشْدِيقُ بِالقَوْلِ وَ الثَّنَا وَهَلْ يَنْفَعُ التَّزْوِيقُ فِي تَحْصِيلِ العُلَى[2]

وَهَلْ يَنْـــفَعُ المَرِيضُ مَا سِوَى طِبِّهِ وَهَلْ يَسْلُو غَرِيبٌ وَقَدْ فَارَقَ الأَهْلاَ

فَلاَ يَـــقِـــفُ الظَّـــمْآنُ دُونَ شَرَابِـــهِ وَلاَ الجَائِعُ هَيْهَاتَ مَا لَمْ يَجِدْ الأَكْلاَ

فَإِنْ لَقَّتَ الأَقْوَالَ تَحْكِي كَقَـــوْلِهِـــمْ فَهَذَا شَهْدُ الزُّنْبُورِ أَيْنَ عَسْـــلُ النَّحْلاَ

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الحَمِيلُ وَمَا الذِّي دَعَـــاهُ لِـــهَـــذَا الـــزُّورِ بِـــهِ تَحَمَّلاَ

إنّ ما يطرأ على الصّوفي في سيره قد يشكّل الفجوات التّي على المتلقي ملؤها في القصيدة الصّوفية, وتمكّنه من ذلك في أن يتحقّق بمعرفة مقامات وأحوال الصّوفية,والتّـــي تعبّر عن تجربة ذاتية صوفية قد يصعب على الصّوفي نفسه التّعبير عنها, وفي هذا كلّـــه بغية الوصول إلى التّواصل بين أحمد بن عليوة والمتلقي كما يعمد على إثبـــات إمكانـــات تأويلية القصيدة إلى احتمالات عدّة, وهذه الأخيرة التّي " تختلف باختلاف الطّريقـــة التّـــي يملأ بها كلّ متلق فجوات النّص لا يجب أن توحي بأنّ النّص النّاتج في نهاية الأمر هو كلّه اختلاق ذاتي للمتلقي, ولكّنها برهان على لا نفاذية النّص..."[3].

**إشكالية التـــأويل والتشفير في اللامية :**

[1] أحمد بن عليوة " المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية ", ص 99

[2] أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين", ص 9

[3] فاطمة بريكي " مدخل إلى الأدب التفاعلي ", ص 153

إنّ مرتبة الصّوفية عند أحمد بن عليوة في المقام الأعلى,تتجسّد بابتعادهم عن المدنّس, ويعتقد الغير(العوام) في ظلام ودجى يقصد بذلك العامّة الدّين هم في الأرضي, والتّرابي المظلم بالشّهوات, فبارتقاء الصّوفي تتحقّق المشاهدة البصريّة في مرتبة التّجلي, كما ينفصل تماما عن أيّة آلية تفاعلية مع العامّة من ذوي أهل الظّاهر,فهو يحاول تحديد الثنائيات المتعارضة (الظّاهر/ الباطن, الخاصّة /العامّة), ومن جهة أخرى " فيترتّب عن هذا الانفصال أنّنا نكون بإزاء اختيارين اثنين يحدّدها مسار التّلقي الذّي نخضع له..."[1].

بالاستناد إلى أبياته هذه التّي تناولناها, تبقى دائما الأنوار القدسية تتجلّى في مقاماته,كما تتحقّق الولاية لأهل الوراثة, ويبقى دائما المتلقي في عملية بحث واستكشاف دائمين للمعنى الصّوفي والدلالة الرّوحانية التّي يتغنّى بها كلّ الصّوفية , ولنا في قوله:

وَلاَ تَعْجَبْ مِنْ هَذَا وَقَدْ كَانَ قَبْلَنَا هُدَاةً عَلَى التَّحْقِيقِ فِي الأُمَمِ الأُوْلَى [2]

تُرِكُوا مَابَيْنَ القَوْمِ لَمْ يُسْمَعْ قَوْلُهُمْ وَقَدْ مَرَّتِ الأَيَّامُ وَ النَاسُ فِي غَفْلاَ

وَ بَعْدَ وَفَاةِ الشَّيْخِ يَظْهَرُ كَمِثْلِهِ فَهَذِي سُنَّةُ اللهِ جَرَتْ فَلاَ بَدْلاَ

وفي هذا الشأن يبقى المتلقي يواجه دائما في النّص الصّوفي " إشكالية تتمثّل في دلالة المفردات أو لنقل في العلاقة بين الدوال والمدلولات...ولم تنل لدينا أيّ اتفاق, أو مواضعة ممّا يجعلها عقبة تواجه المتلقي عند الخطوة الأولى من العمل,وتظل ترافقه إلى مستوى الدلالة الكلّية للنّص..."[3],فمقامات الصّوفية وأحوالهم اشترك فيها كلّ الصّوفية عبر مختلف العصور الدّين يتأتّى لهم مقام التّحقيق,عرفوا باصطلاحات خاصّة بهم لم تتكشّف للعامّة, إنّها في المفهوم اللّساني شفرة أو الوسيط بين الذّات الصّوفية , والذّات الإلاهية, فأقوالهم لم يسبق للعامّة أن تداولوها, فغفلوا عنها, وعن إدراكهم للذّات الإلاهية, ومن هذا

[1] إدريس بلمليح "القراءة التفاعلية ", ص 63

[2] أحمد بن عليوة " دواووين آيات المحبين في مقامات العارفين",ص 5

[3] سامح رواشدة " إشكالية التلقي والتأويل ",ص 55

المنظور" يبدو أنّ الشّعراء الصّوفيين هم أبرز من مارس إعادة التّشفير اللّغوي في الشّعر قديما عن طريق نزع الدّلالات الأولى الحسّية, والدّنيوية لكلمات تتصل بمجـــالات الجنس والخمر, وحالات النّفس لإدراجها في أنساق رمزية جديدة..."[1] تعبّر عن تجربتهم, ووجدهم الصّوفي, وشطحاتهم, ومقاماتهم, كما أنّ علاقة الشّيخ بالمريد تفرز وضعية ثنائية استقبال وتلقي, فيطغى هذا على سنّة الله, فيصبح وراثة بعد وفاته, ثم يعـــود بـــن عليـــوة ليؤلّف أفقا آخر بينه, وبين القارئ لقصيدته, ونورد منها قوله:

فَإِنْ فَاتَكَ الوُصُولُ عِنْدَ حَيَاتِكَ فَالفَوْتُ فَذَاكَ الفَوْتُ صَحَّ بَعْدَ النَّقْلاَ [2]

فَشَمِّرْ عَنْ سَاقِ الجِدِّ وَانْهَضْ لأَمْرِهِ فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ فَلْيَسْتَنْجِدْ العَقْلاَ

وَلْيَقُلْ فَاتَ الزَّمَانُ عَنِّي يَا حَسْرَتِي وَلْيَنْهَضْ بِجِدِّ الحَقِّ حَقًّا وَإِنْ جَلاَ

إنّ المفاهيم الصّوفية لا تؤخذ بالأقوال أو النّقل, وإنّما بـــالأذواق, وتحصّـــل علـــى المريد في حياة شيخه, فعلى المريد أن يأخذ هذه الاصـــطلاحات, والمعرفـــة بـــالأحوال والمقامات,فهي لا تتحقق دون الشّيخ أو بالأحرى (الخلق), فهذا الأخير يمثّل وسيلة أو قناة اتصال بين الذّات الصّوفية والذّات الإلاهية,أو بين الخلق ( المريد) بالحقّ (الله), فالعـــارف الصّوفي إلى إدراك فعلي, ذلك أنّ "أحباب الله سقاة العطشى يغرفون من نبع لا ينبـــض, من عين السلسبيل,من حوض المصطفى عليه الصلاة والسلام..."[3]

وبهذا الإطار المعرفي الذّي يحاول أن يبرزه للمتلقي بتمريـــره إيّـــاه فـــي إطـــار التّواصل اليومي أو العادي التّي لا تحتاج فيها المتلقي إلى فكّ شفرة المتصوف, ذلـــك أن الصوفية " يعتمدون المجاهدة التي تحرر فيها نفوسهم من قيودهم, فتقى عن صفاتها, حيث تتذوق البقاء مع الحق بعد عبور الحواجز والمعوقات عن طريق التصفية والتطهير, وبهذه

[1] صلاح فضل "أساليب الشعرية المعاصرة " , ص 277
[2] أحمد بن عليوة " دواووين آيات المحبين في مقامات العارفين",ص 5
[3] عوض الله البحيصي "الهمة العلاوية في شرح اللامية "المطبعة العلاوية , مستغانم, 1998, ط 1, ص 15

المسيرة العارجة, وما بالنفس الإنسانية, يتحقق لدى الصوفية مراتب الاتصال...."[1], فيتحقق القرب مع واحد الذات, ومن الصوفية من لا يترقى في المدارج فيخيب مسعاه ما لم يطوي ظاهره, وما لم تتمحى رسومه, وحول هذا له في شعره :

كَانَ اللهُ وَحْدَهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ وَهُوَ كَمَا كَانَ آخِرًا وَ أوَّلاَ [2]

فَهُوَ وَاحِدُ الذَاتِ لاَ شَيْءَ دُونَهُ بَاطِنٌ ظَاهِرٌ أزَلِي وَلاَ زَالاَ

فَأيْنَمَا رَأيْتَ رَأيْتَ وُجُودَهُ فَفِي مُطْلَقِ التَوْحِيدِ لَيْسَ فِيهِ إلاَّ

فَكَيْفَ بِذَاتِ اللهِ يَحْصُرُهَا حَاجِبٌ فَمَا ثَمَ مِنْ حِجَابٍ سِوَى النُّورُ تَجَلَّى

وَلَيْسَ لَكَ هَذَا إلاَ صُحْبَةَ مَنْ لَهُ مَقَامٌ يَسْمُو وَ قَدَرٌ تَبَجَلَى.

ولعلّ الطريق الصوفي أو العروج من مقام السير إلى مقام الحق بمثابة قناة اتصالية بين الخلق(مرسل), والحق(المرسل إليه), ولكن ليست فيزيائية أو حتى نفسية, لا يمكن وصفها دونما وعي القارئ بتجربة العروج لدى الصوفي نفسه, والوصول إلى المقام الأسنى ورؤية الحق هي تأكيد على فعالية الاتصال واستمراره, وعليه فإنّ الحدث الاتصالي الصوفي روحيا بطبعه لا يتأتى لأي أحد.

وقد تتجسّد هذه التجربة في قصيدة مكتوبة بين الصوفي والمتلقي يكون بينهما " قناة ترابط مادي ونفسي تمكنها من إقامة التواصل..."[3], ثم إنّ " الاتصال بين الكاتب والقارئ يتم عبر النص..."[4] بطريقة تفاعلية مستمرة الصلاحية, ويظهر جليا في سكره, ومن ذلك ما يتضح في شعره:

فَإنْ صَادَقْتَ الدَّاعِي مُحِقًا فِي زَعْمِهِ مُشِيرًا إلَى التَّحْقِيقِ وَالمَقَامِ الأعْلَى [5]

---

[1] مجدي محمد إبراهيم " مشكلة الاتصال بين بن رشد و الصوفية " ,ص 171.

[2] أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين ", ص 10-11.

[3] صالح بلعيد " دروس اللسانيات التطبيقية ",ص 44

[4] حسين خمري" نظرية النص ",ص 74

[5] أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين ",ص 11.

فَإِيَّاكَ وَالإِهْمَالِ فَاقْحَصْ عَنْ قَوْلِـــهِ وَسَلْهُ عَنِ الوُصُولِ هَلْ يَعْرِفُ الوَصْلاَ

وينشأ عن هذا التفاعل " التواصل الاجتماعي, كما رأينا من حقيقـــة أن النـــاس لا يمكنهم أن يجرّبوا كيفية تجريب الآخرين لهم, ولا ينشأ من الموقـــف المشـــترك ,أو مـــن المواضعات التي تربط كلّ المشاركين معا, كما تعمل المواقف المواضعات تنظّم طريقـــة التي تملأ بها الفجوات مقام دافع أساسي للتواصل...."[1] .

رغم ذلك لا تحكمه الدقة في حكمه على النص, إذ لا يصل إلى القصدية, ونعتقـــد إلى القابلية على التحقق لذلك يحدث تلك العلاقة الحيوية, من حيث ما يـــدل عليـــه مـــن معروفه,حيث يرى أنً " كل من اقتدى بمثل هؤلاء يكون له عائق في الطريـــق وضـــرّه أقوى من نفعه, فلهذا ينبغي للمريد أن لا يصحب من كانت هذه سيرته, ومن علامة هـــذا المدعي أنه يقول: إن الوصول إلى الله بعيد, صعب على أمثالنا , وينكر على مـــن يقـــول بقربه..."[2].

## جـــــدلية الـــبـــوح الصّوفي والتّأويل:

[1] سوزان روبين سليمان " القارئ في النص" ,ص 132-133.

[2] أحمد بن عليوة "المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية"، ص 90.

تفيض المعاني حينما تفيض الكأس بقطرة نورانية من فيض إلاهي , فتبوح المعاني عن رموزها وأسرارها, إنّها ثمرة تواصل بين الخلق وسرمدية الحق, وفي ذلك يقول :

وَهَلْ يَكْتُمُ الفَرَحَ مَنْ كَانَ زَعْمُــهِ أَنَّهُ عَبْدٌ رَقِيقٌ صَارَ هُوَ المَوْلَى [1]

وَ كَيْفَ يَطِيقُ الصَّبْرَ مَنْ كَانَ ظَنُّهُ أَنَّــهُ خَسِيسُ القَدْرِ صَارَ مُبَجَلاً

فالسّكر يولّد الوجد والتواجد هي دلالات و" بشارات الحقّ بــالتّرقي إلــى مقامــات مشاهداته..."[2], وحرّكهم ما أشربوه في قلوبهم من حبّ الله, وفي اعتقاد أحمد بن عليوة أنّ " الرّقص والتّواجد هما من لوازم التّصوف , وإنّما هما من لوائح ما ينشأ عن الاستغراق في الذّكر ..."[3], فيه يرفع الحجاب ,ويدوم الاقتراب , وإنّ هذه الحالة اللاشعورية بغيــاب الإدراك التّي يكون فيها الصّوفي غير سويّ, تحقق للذّات الصّوفية التّواصل الرّوحي مــع الذّات الإلاهية.

فعلى العكس تماما فالتّواصل الاجتماعي في ضوء اللّغة المكتوبة أو المنطوقة, فإنّ " الشخص السّوي هو ذلك الذّي يستطيع إقامة اتصالات إلى شقائه, أو شقاء الآخريــن..."[4] ,كما أنّه ينتج عن هذا الترابط الشبكي " ترسيخ عمليات تفكير الذّات من خلال ما يمكن أن يسمّى الاختراق الدّلالي وهو الاقتحام المطلوب أو المسموح به على الأقل الــذّي ينجــز ضمن القارئ فعل الحياة بشكل تام :فالنّص هو الضوء الموجّه إلى وجهي الذّي يمكّننــي من أرى ذاتي بمرآة وحيدة الاتجاه أمسكها أمام الذّات ..."[5],وبالتّالي فهذه الإشكالية تحتاج إلى التّأويل " حاجة لا تتطلّبها النّصوص كلّها , إنّما يستدعي للخطاب الذّي حقق قدرا

معقولا من العمق ,والذّي يعاند المتلقين أحيانا ,ويحتاج منهم أن يبحثوا فــي دّلالات ومقاصد وتوجيهات ,لا تحضر أوّل وهلة في أذهانهم ,أو تشكّل على الحضــور لــدخول

[1] أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين ",ص 12 ,13

[2] تاج الإسلام أبو محمد الكلاباذي "التعرف ",ص 113

[3] أحمد بن عليوة " رسالة القول المعروف في الرّد على من أنكر التصوف ",ص 57

[4] محمد أحمد النابلسي " الاتصال الإنساني وعلم النفس ",ص 30

[5] دانيال تشانهدلر " أسس السيميائية ",ص 223

عوالم محدّدة إلى النّص تحول دون تبني توجيه ما ..."[1], ويفرز " علائق جديدة مصـــدر متعة غير متوقعة وغير متصورة..."[2],وتتبيّن المقاصد التّي تقترب من قصـــدية المؤلّـــف خاصّة الصّوفي الذّي يمثّل أهل الخاصة , ويحقّق إنجازا يستشف فيه نيّة المؤلّف, ولكّـــن القارئ يسمو إلى المعنى السّرمدي دون تخلّصه من معاني النّص الظاهر, ويرتقي من أناه إلى الأعلى.

كما يعمل عملا دؤوبا في استكشاف رغبات الصّوفي الرّوحية, وخاصّة ما ارتبـــط بالوجد ودوافعه, وعليه فإنّ ذوق المتلقي ومتعته في النّص لاتوازي الذّوق الصّوفي أبـــدا ,ذلك أنّ الأولى تنتج من وظيفة جمالية , والثانية عن حالة نفسية روحية تبغي الارتقاء و العروج نحو القرب والمشاهدة,فعلى القارئ أن يستثمر قدراته وفـــق النّـــص ذاتـــه, وأن يستجيب للمؤثّرات النّصية ومؤشراته_ التّي تراهـــن علـــى البـــاطن ,وتنفـــي الظـــاهر وهذا العمل الفكري أو هذا " الجهد طاقة خاصّة تخلق الثّقة في المتلقي بحيث يشعر أنّـــه مالك للنّص ومشارك فيه , وهذا ينفي أيّ قداسة ومحرّمات من الممكن أن تخلقها حاجزا بين القارئ والعمل الإبداعي ..."[3].

وذلك على حسب الآليات التّي يستعملها القارئ في تأويله للنّص الصّوفي, " فلكـــلّ قارئ أدوات استقبال وتوجيه ,تختلف بطبيعة الحال عن الآخر و يوجّهها صاحبها على صورة مختلفة عن غيره, ممّا يعطيه فرصة لإنتاج النّص على نحو مختلف تماما..."[4], ثم إنّ الحديث عن التّوقع يحيلنا مبدئيا إلى الإطار الذّي يحكم المتلقي من ظـــروف عـــادات وتقاليد ثقافية,وهذه المقوّمات الفكرية المتمثّلة في " التوقعات قد لا تصدق على النّصوص

كلّها, ولكّنها مطرّدة تقريبا..."[5], قد تعيق عملية التفاعل الإيجابي بالنّظر إلى تلـــك المعايير, رغم أنّ النّص يخضع لسلطة المؤلّف دون القارئ , وعموما التصوف من شأنه

---

[1] سامح الرواشدة " إشكالية التلقي والتأويل ",ص 13
[2] المرجع نفسه,ص 13
[3] المرجع نفسه, ص 18
[4] المرجع نفسه,ص 19
[5] المرجع السابق, ص 20

يمثّل " حركة إيقاظ للقدرة التأويلية للتفكير الإنساني في مواجهة مجاهيل الكون و خفايا الإنسان , وحقيقة الخالق عزّ وجلّ , وسبل الوصول إليه..."[1] ,ومن جهة أخرى فاللّغة الصّوفية تحمل مدلولات مغايرة.

ولم يقتصر الخطاب الصّوفي عليها إنّما تعدّاها إلى توليد الألفاظ, عرّفت بنفسها على أنّها محاولات تقريبية لما يرتبط كياناتهم,ومن ثمّة " لا يصّح في الواقع أن يحكم على قول الصّوفي إلاّ إذا تحقق المستمع أنّه يتكلّم من حيث العلم, فيمكن إذ ذاك أن يقاس كلامه بالمعقول المتعارف لدى النّاس, والمنقول ممّا يتضمّنه النّص..."[2] .

[1] ناهضة ستار "بنية السرد في القصص الصوفي "_المكونات, والوظائف, والتقنيات_,دراسة,اتحاد الكتاب العرب, دمشق,2003

[2] عبد السلام الغرميني " الصّوفي والآخر "_دراسات نقدية في الفكر الإسلامي المقارن_, شركة النشر والتوزيع, المدارس,ط 1 ,2000